زكرياء فائد

جمالية الاقتران

بين الخلق والعبادة

في مجالس القرآن

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net

جمالية الاقتران بين "الخلق" و"العبادة" في "مجالس القرآن"

إعداد: زكرياء فائد

أستاذ مساعد بكلية الآداب عين الشق بالبيضاء

تخصص:"علوم القرآن" و"القراءات القرآنيّة".

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمائه التي لا تحد حدًّا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأشهد ألاَّ إله إلاَّ الله وحده لاشريك له العليم الذي يعلو فوق كل ذي علم، العظيم الذي لا عظيم غيره، وأشهد أن محمداً خليل الرحمان وحبيبه، وصفوته من خلقه ورسوله، جاء بالكتاب المحكم المبين من عند ربه إلى الخلق أجمعين، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

أما بعد فإن دقة نظم القرآن الكريم، وقوة معانيه، وفصاحة ألفاظه، ورصانة أسلوبه، وتناسب آيه وسوره، كلّ ذلك يعدّ من الإعجاز الذي تحدّى الله جلّ وعلا به أرباب الفصاحة والبيان وأهل البلاغة والتبيان في كلّ زمان ومكان، فلم يستطيعوا ولن يستطيعوا والجنّ أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فإنه يعلو ولا يعلى عليه، كما قال قائلهم: " إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بكلام بشر.[1]

وكيف لا يعلو وهو كلام الربّ العليّ . ولذا لا غرابة أن يكون القرآن الكريم كتاب تعريف بالله جلّ وعلا المتكلّم به، فإذا كان تدبّر القرآن هو المقصد من إنزاله كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[2] فإنه يعتبر وسيلة لتحقيق غاية الغايات و أعظم المقاصد ، وأصل الأصول ومنتهى الوصول ،ألا وهو تعريف الخلق بالخالق جلّ وعلا جمالاً وجلالاً وكمالاً.

ولا أدلّ على ذلك من سياق ورود أسمائه الحسنى في آخر سورة الحشر بعد التنبيه على عظمة القرآن ، حيث قال جلّ وعلا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[3] ثم قال مُعرفاً بنفسه من خلال أسمائه الحسنى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾[4] ، فمن أراد معرفة الربّ جلّ وعلا فعليه بقراءة القرآن الكريم بتدبّر، ولذا كان هذا أحد الطريقين لمعرفة الربّ جلّ وعلا كما قال ابن القيّم رحمه الله تعالى:"الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين أحدهما : النظر في مفعولاته ، والثاني التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة وهذه آياته المسموعة المعقولة. فالنوع الأول كقوله "إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس" إلى آخرها وقوله "إن في

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب"، وهو كثير في القرآن، والثاني :كقوله "أفلا يتدبرون القرآن"، وقوله "أفلم يدبروا القول"، وقوله "كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته "،وهو كثير أيضا"[5].

ومن القضايا الأساسيّة التي لا يفتأ القرآن الكريم يذكّر بها، باعتبارها مفتاح المعرفة الإلهيّة: قضيّة الخلق،بدءاً بأقرب شيء إلى الإنسان ، وهو نفسه التي بين جنبيه، قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ﴾[6] ولذا كانت إقامة الأدلة بالخلق على التوحيد شعار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما في قصّة إبراهيم عليه السلام مع قومه حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[7]

يقول ابن حجر معلّقاً رحمه الله تعالى: "دلت الآية على أحكام لا بأس بالإشارة إليها أو بعضها ، منها:أنّ إقامة الأدلة على التوحيد هو شعار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وأن التقليد في ذلك غير مغن شيئاً كما قاله كثيرون أو مغن شيئاً ولكنه ناقص عن الاستدلال وهذا هو التحقيق، وأن معارف الأنبياء بربهم استدلالية ضرورية، وأن الطريق في معرفة الله تعالى النظر في مخلوقاته إذ لو أمكن تحصيلها بطريق آخر أسهل من ذلك لسلكه إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم."[8]

وفي التذكير بهذه الحقيقة الثابتة استجابة للفطرة البشريّة. يقول الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى: " إن الذي ينصت إلى خطاب الفطرة البشريّة في نفسه يسمع نداءً عميقاً يترجم الرغبة في معرفة من أسدى إليه نعمة الوجود. ألا ترى أن الإنسان مفطور على شكر من وصله بمعروف؟ بلى! إذن: لم لا تسأل عمن خلقك؟ لا تسرع في الإجابة! لا تقل لي: إنني أعرف الله، فأنا مسلم، فما الذي نريد؟أنت مخلوق، هذه حقيقة وجوديّة، فلا أحد منّا جاء إلى الوجود بإرادته وقراره. من هنا كان الواجب الأوّل عليك أن تبحث عن الله الخالق، بهذه الصفة، أعني صفة الخالقيّة ، لأنها سبب مجيئك إلى الكون، وإلا كنت عدماً. ولذلك كان أوّل حقّ لله ربّ النّاس على النّاس وجب عليهم أداؤه ابتداءً: هو حقّ الخالقيّة."[9]

ومن ثمّ كان الخلق في القرآن الكريم مقترناً في كثير من المواطن بحقّ الخالقيّة المتمثّل في عبادة الله وحده دون سواه، وفي هذا استجاشة لمشاعر المخاطبين بهذا القرآن لمعرفة الربّ جلّ وعلا خالقاً وخلّاقاً بالتفكّر في خلقه، وما يقتضيه ذلك من أداء حقّ الخالقيّة.

فإذا عرف العبد ربه "الخالقَ"،"الخلاّقَ" الذي سخَّر عالم الجماد، وعالم النبات، وعالم الحيوان لخدمة الإنسان، أدرك نعمة الله في الخلق، فحَمَله ذلك على التفكرِ في كون ربّه، والنظرِ في بديع صنعه: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾[10]، والتدبُّرِ في نفسه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾[11] فيستشعر تقصيرَه في شكر نعمة الخلق وما تقتضيه هذه النعمة من عبادة وطاعة.

وهو ما عبّر عنه ابن القيّم رحمه الله تعالى في "مدارج السالكين" بمنزلة "اليقظة": حيث عرّفها بقوله : "لحظ القلب إلى النعمة على اليأس من عدّها ،والوقوف على حدّها والتفرغ إلى معرفة المنة بها، والعلم بالتقصير في حقها"[12].

ولذلك لا غرابة أن نجد في القرآن الكريم أزيد من ألف وثلاثمائة آية كونيّة، كلّها تستحث القارئ للتفكّر في الخلق لمعرفة عظمة الخالق جلّ وعلا، الذي أحسن كل شيء خلقه فأتقن صنعه وأبدع كونه وهداه لغايته،ومن ثمّ كانت قراءة المؤمن للكون قراءة إيمانيّة تنتهي به إلى الإيمان ثمّ إلى الشكر والعرفان، وأساس ذلك أن هذا الكون سخّره الله تعالى للإنسان تسخير تعريف وتكريم، أما تسخير التعريف فكلُّ ما في السماوات والأرض ينطق بوجود الله ووحدانيّته وكماله، ويشفُّ عن أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، وهو مجال رحب للتفكّر في خلق السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾[13] وهذا المسخّر ليعرّفنا بالخالق جلّ وعلا مسخّر لنا تسخير تكريم فقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ ﴾[14]

والواجب على الإنسان تجاه تسخير التعريف أن يؤمن بالله تعالى ويعظّمه، وتجاه تسخير التكريم أن يشكره، وإذا آمن العبد وشكر فقد حقّق الغاية من وجوده[15].

والعجيب أن أجناس الكون من حيوان ونبات وجماد – وقد جعلها الله تعالى في خدمة الإنسان– كلّ واحد من هذه الثلاثة له قانونه وله مهمته ،فللحيوان مهمة ، وللنبات مهمة ، وللجماد مهمة .

ولا تجد جنسا من هذه الأجناس تمرد على مهمته؟!

كل الأجناس – إذن – تؤدي مهمتها كما ينبغي ، فاستقام الأمر فيها ، وما دام الأمر قد استقام فيها ، فبأي شيء استقام؟ إن الله هو الذي خلقها وذلّلها ، وجعلها في خدمة الإنسان مؤمنا كان أو كافرا ، وفي هذا الأمر عدالة الربوبية ، فلا تتأخر أو تشذ عن حركتها في خدمة الإنسان .

إنه تذليل وتسخير وخضوع لهذه المخلوقات منحه الله تعالى للإنسان تفضلا منه – سبحانه – مع عجزه وضعفه .

فإذا كانت هذه هي صورة الكون وهو يؤدي مهمته بلا شذوذ فيه ، أفلا يليق بالإنسان أن يؤدّي مهمّته التي خلق من أجلها ألا وهي العبادة [16].

وهكذا فإن منزلة التفكّر بين الخلق والعبادة منزلة عظيمة جداً،ومن هنا ندرك سرّ تأثّر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بآيات آل عمران ، كما في صحيح ابن حبان بإسناد جيد، قال عطاء : دخلت أنا و عبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فقال عبيد بن عمير : حدثينا بأعجب شيءٍ رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكت، وقالت: (قام ليلة من الليالي –أي: يصلي– فقال: يا عائشة ذريني أتعبد لربي قالت: قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما يسرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يُصلي، فلم يزل يبكي حتى بَلَّ حِجره، ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت عليَّ الليلة آيات ويلٌ لمن قرأها و لم يتفكر فيها: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[17]

وكأن الأمر في الحديث يتعلّق بثلاثيّة يبدأ فيها العبد متفكّراً في الخلق، فعارفاً بالله الخالق، فعبداً شكوراً.

"وهكذا لا يليق بمَن الله خالقه أن يتّخذ غيره معبودا ممّن لا يخلقون شيئا وهو يخلقون، ثم هم لا ينفعون ولا يضرّون، ولا يحيون ولا يميتون، ولا يبعثون أحداً من بعد موات فأيّ آلهة زور هذه؟! وأيّ أرباب باطل وبهتان؟! ثم أيّ ظلم هذا الذي يقترفه الإنسان الضالّ الجهول عندما يضرب بحقّ الخالقيّة عرض الحائط، ويتمرّد على الخالق ويعبد المخلوق؟! كيف وها شؤون الربوبيّة كلّها مرجعها إلى الله؟! فهو الرب الذي لا إله غيره ولا رب سواه! وهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده جلّ علاه، الأحد الصمد، الذي لا والد له ولا ولد، و لم يكن له كفؤاً أحد."[18]

لهذا وغيره كانت العلاقة وطيدة بين الخلق والعبادة في القرآن،وتعدّدت وتنوّعت مواطن الاقتران صراحةً أو ضمناً،وقبل أن ندلف إلى بيان أهمّيّة هذا الاقتران وذكر بعض نماذجه في القرآن خاصّة من "مجالس القرآن، لابد أن نذكّر بمعنى الخلق، والعبادة في هذا المقام.

مفهوم الخلق والعبادة في القرآن:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أمّا الخلق:"فمفهوم من أغرب مفاهيم القرآن العظيم، ومن أكثرها استعصاءً على الفهم والإدراك، فهو دالٌّ عموماً على التكوين والإنشاء، إبداعاً واختراعاً، أي أنه خلق الخلق على غير مثال سابق، فتأمّل هذه الحقيقة أوّلاً: "على غير مثال سابق"، إنه تعالى فطر خلقه، وأنشأهم و لم يسبق له في ذلك نموذج يحتذى، فسبحانه وتعالى من خالق عظيم، فلقد كان تعالى و لم يكن قبله شيء،هو الأوّل بلا بداية، وهو الآخر بلا نهاية، جلّ شأنه، وتعالى جدّه، ولا إله غيره".[19]

وأمّا العبادة فالمراد بها في هذا المقام عمومها، الذي يشمل مراتبها الثلاث، كما يقول الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى: "ومعنى العبادة : الخضوع والانقياد الطّوعيّ لله ، بالدخول تحت ربقة الإيمان قولاً وعملاً، واعتقاداً وسلوكاً. وهي مراتب:

أولاهنّ : توحيد الله وإخلاص الدين له.

والثانية: الدخول تحت تكاليف الشريعة من العبادات المحضة، وسائر أحكام الحلال والحرام، ويعتبر التخلّق بأمهات الفضائل والتخلّي عن أمهات الرذائل هو مدار العبادات العمليّة في الإسلام.

وأمّا المرتبة الثالثة للعبادة فهي: السعي إلى عمران الأرض، وإصلاح المعاش، وتطوير الزراعات والصناعات والتجارات، وتسخير الطاقات المبثوثة في الأرض ومحيطها الكونيّ، بما يحقّق ضمان قيام المرتبتين الأولى والثانية.[20]

اقتران الخلق بالعبادة في القرآن وأهمّيّة ذلك:

يقول الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى: "تأمّل قوله تعالى : ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[21] انظر كيف ربط حقّه تعالى على عباده بمبدأ خلقهم أطواراً. فكلّما ازداد الكفّار تعنّتاً ازداد القرآن إفحاماً لهم، في بيان تفاصيل الخلق. فتلك حجّة الله البالغة إجمالاً وتفصيلاً. تدبّر معي هذه الآيات واحدةً واحدةً... قال عزّ وجلّ في حقّ الكافر الذي أنكر البعث على محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فجاء بطحين عظام ميّتة نخرة، ونفخ فيها فتطاير غبارها من يده، فاستهزأ متسائلاً بما حكاه عنه القرآن الكريم، قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[22]

وتأمّل كيف إن تلك كانت حجّة موسى الذي صنعه الله على عينه، في ردّه على فرعون، إذ تعنّت في إنكاره، قال عزّ وجلّ: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾[23]

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنه تعريف للربوبيّة في عبارة من أوجز العبارات الربّانيّة المسطورة في القرآن الكريم....فتدبّر... ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ وجاءت الحجّة الربّانيّة في بيان الأطوار الوجوديّة للإنسان في قوله تعالى أيضاً: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَىِّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾[24]

وقال في سياق التمهيد لقصص بعض الأنبياء، ودحض حجج المنكرين للبعث: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾[25] تأمّل: ما بال هذا البيان والتفصيل لقضيّة الخلق، لولا أنها قضيّة كونيّة كبرى، ينبني عليها ما ينبني من مصير وجوديّ في حياة الإنسان، هذا المخاطب بها ابتداءً؟

وانظر إلى هذا السؤال الإنكاريّ الرهيب عن الوظيفة الوجوديّة للإنسان، إذ تمتّع بمنّة الخلق، ثمّ غفل عنها وتناساها.. انظر وتدبّر جيّداً، واقرأ، وأعد القراءة مرةً، وأخرى، لعلّك ترى... قال جلّ جلاله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِىَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[26]

ومن أثقل الآيات القرآنيّة، وأعمقها دلالة على الموقع الوجوديّ للإنسان من الخلق قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـًٔا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٍ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغۡلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾[27]

ثم يقول رحمه الله تعالى بعد هذا البيان: " إن قضيّة الخلق تمثل مفتاح فهم الربوبيّة، والمعنى الوجوديّ والوظيفيّ للإنسان،ولولا خشية الإطالة لبيّنت لك من خلال كلّ سور القرآن بدون استثناء أنها المبدأ الكلّيّ الذي على أساسه خاطب الله الإنسان بكلّ أمر ونهي، بل إنها تمثّل البنية الأساس لخطابه الذي عليه يتفرّع كلّ شيء، مما قرّره في العقيدة والشريعة على السواء.[28]

جمال الاقتران في مجالس القرآن:

تضمن كتاب "مجالس القرآن" للدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى شواهد لجمال قتران الخلق بالعبادة في القرآن،وهذه بعضها:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.[29]

وهو نداء عامّ إلى كلّ الناس لعبادة الربّ جلّ وعلا خالقهم وخالق من قبلهم ، وما دام سبحانه وتعالى تفرّد بالخلق فوجب أن يتفرّد بالعبادة.[30]

لذا لا يليق بمن كان الله جلّ وعلا خالقه، وصاحب الفضل عليه في إخراجه من ظلمات العدم إلى نور الوجود، أن يتمرّد عليه؟!

يقول الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى:"والله جلّ جلاله هو الذي خلق هذا العالم وأبدعه بما فيه من ملك وملكوت، وبما فيه من ملائكة وإنس وجنّ وحيوان، فكيف بهذا الإنسان الحقير أن يتمرّد على مولاه؟ وما هو بكل ضجيجه وعجيجه[31] سوى جزيئة ضئيلة ضئيلة ضمن ملايين المخلوقات والكواكب والمجرّات! "[32]

ثمّ يمضي السياق القرآنيّ في بيان ما سخّره الله للإنسان تسخير رعاية وتكريم، فتأتي الجملة الموصولة معرِّفةً بذلك مقترنة بالنهي الشديد عن ما ينافي العبادة من اتخاذ الأنداد ، حيث يقول الباري جلّ وعلا: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[33]

يقول الشيخ رحمه الله تعالى : " فهذه الأرض التي هي محض خلقه سبحانه، هي هبة ربانيّة لكم فانظروا : هاهي ذي لكم كالفراش الموطّأ المريح! مثبتة بجبالها الرواسي، مطمئنّة إلى جاذبيّتها العجيبة، سائرة بكم الهوينى في فلكها، ما بين فصول ممطرة وفصول مزهرة وأخرى مثمرة! وأحاطكم بسماء جميلة، بناها تعالى بإتقان فوق أرضكم حفظاً لها ولكم،وخدمة لمنافعكم واستمرار حياتكم ، فأنزل منها أرزاقكم ماءً مباركاً، ينبت الزرع والثمار وكلّ ما تحتاجونه، أنتم وأنعامكم مما هو محض رزق منه تعالى لكم! فعجباً ممن يكفر بربّه تعالى –بعد ذلك– أو يشرك به!"[34]

وقوله جلّ وعلا في نفس السورة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾﴾[35] ، وبعدها مباشرة قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾[36] للتأكيد على أن خلق ما في الأرض جميعاً إنما كان من أجل الإنسان خاصّة، ثمّ كان خلق السماوات بناءً فوق الأرض سقفاً لها، وكان بعد ذلك خلق الإنسان، ثمّ سخّر الله الخالق كلّ ما بينهما لخدمته، كما قال جلّ وعلا:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[37] وقد مهدت له كلّ أسباب الحياة والعمران، إنه تدبير رحيم، وتكريم عظيم ، لهذا الإنسان، من حيث هو إنسان.[38]

ثم يقول رحمه الله تعالى: "فالأمر الوارد في سورة البقرة: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ جاء في سياق قصّة الخلق الأوّل، والاستخلاف الربّانيّ للإنسان في الأرض، وهذا منطلق مهمّ لفهم حقيقة الإنسان، وطبيعة العبادة المطلوبة منه لله ربّ العالمين".[39]

- قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾[40].

هذه بعض الآيات الكونيّة التي بثّها الله تعالى في الآفاق والأنفس، والتي من شأنها أن تستوقف كلّ متبصّر فيها ، خاصّة من حيث تسلسلها العجيب، فمن الظّلّ وحركته مدّاً وقبضاً، وكيف جعل الله تعالى الشمس عليه دليلاً، إلى الليل والنهار لباساً ومعاشاً، ومن إرسال الرياح إلى إنزال الماء الطهور إلى الحيوان إلى الإنسان.

يقول الشيخ رحمه الله تعالى: "وهكذا يدور الظل مع الشمس في حركة متوازنة هادئة تبعاً لحركة الفلك في دورة الأرض حول الشمس بصورة تفتح بصيرة المؤمن على مشاهدة القيّوميّة العظمى لربّ العالمين، وربوبيّته القائمة على شؤون مملكته في حركة دائمة مستمرّة، لا تعرف اضطراباً ولا خللاً ولا انقطاعاً".[41]

ثم يقول رحمه الله تعالى مبيّناً ما يقتضيه التفكّر في مثل هذه الآيات من معرفة بالربّ العظيم واستحقاقه العبادة دون سواه: "... فمن ذا غيره سبحانه يستحقّ العبادة والتقديس؟! ألا جلّ جلاله وعلاه، هو الله الواحد القهّار لا إله إلا هو".[42]

ولذا ختمت هذه الآيات الكونيّة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾ ووجه الدلالة في الآية الكريمة من حيث اقتران الخلق بالعبادة واضح باعتبار الضمير في "صَرَّفْنَـٰهُ " عائداً على أقرب مذكور في السياق وهو " الماء الطهور"،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

فتصريفه وتصريف ما تقدّم ممّا ذكر وغيره ، كلّ ذلك للتّذكّر المفضي إلى تجريد العبادة لله جلّ وعلا لا إلى الكفر به.

ثم يمضي السياق في عرض آية جديدة من آيات الخلق، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾[43]

فأنّى لمن تأمّل في هذه الآيات وامتلأ قلبه تعظيماً وإجلالاً للخالق عزّ وجلّ أن يعبد غيره، ولذا كان الإزراء على أولئك القوم الذين لم تنفع معهم دلائل الخلق هذه، فقال جلّ وعلا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾[44]

- قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾[45]

بعد أن أمر الله جلّ وعلا بالتوكّل عليه والتسبيح بحمده، جاء التذكير بالخلق مقترناً به وكأنّه سيق مساق التعليل له، ثمّ أمر بدعائه جلّ وعلا، –ومعلوم أن "الدعاء هو العبادة" كما صحّ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم–[46] ثم ذمّ قوماً لمّا أُمروا بالسجود استنكفوا واستكبروا ، فدلّ بمفهومه على ما سيأتي بعدُ بمنطوقه من أن عباد الرحمان هم الذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً.[47]

- ويمضي السّياق القرآنيّ في بيان ما سخّره الرحمان لعباده من نجوم تدور في أفلاكها، وشمس جعلها الله تعالى ضياءً، وقمر جعله نوراً، وما يترتّب على ذلك من رحمته المتجلّية في آيتي الليل والنهار ، فعَظُمت بركاته وكثرت خيراته بذلك، كما قال جلّ وعلا:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾[48]

ووجه اقتران الخلق هنا بالعبادة تجلّى فيما عبّر عنه القرآن الكريم بالتذكّر والشكر، فإذا كان التذكّر يتأتّى بالتدبّر الذي هو سياحة القلب في مشاهد القرآن ومعارضه، والورود من ربيعه العذب رحمةً وسكينةً وجمالاً. ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ ، فإنه يتأتّى كذلك بالتفكّر الذي هو سياحة الفكر في ملكوت السموات والأرض.[49]

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

و الجميل أن ثمة علاقة نفعيّة متبادلة بين التفكّر والتدبّر، ذلك أن القارئ للقرآن الكريم المتدبّر لآيه لا بد وأن تستوقفه آيات الخلق فتحمله على التعبّد لله تعالى بعبادة هي من أجلّ العبادات ألا وهي التفكّر، كما أن الهاجر للقرآن تلاوة وتدبّراً وهو في لحظة صفاء قد تصفو نفسه وهو يتعرّف إلى ربّه متفكّراً في خلقه ،فتصيبه رجفة الحياء من ربّه ووليّ نعمته،فيعود تائباً إلى كتابه تلاوة وتدبّراً وتخلّقاً.

ولذا يقول الشيخ رحمه الله تعالى: " فالداعية إلى الله ملزم بوردين اثنين دائمين: ورد التفكّر، وورد التدبّر. فهما خلوتان: الأولى في ملكوت الله، والثانية في كتاب الله، وبذلك يكتمل مقام التذكُّر للعبد، ويجني ثمرة ذكراه، مقاماً رحمانيّاً راسخاً إن شاء الله."[50]

وأمّا الشكر فوجه تعلّق العبادة به واضح جليّ، فقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لعائشة رضي الله عنها لمّا أشفقت عليه وقد أطال القيام..... **"أفلا أكون عبداً شكوراً"**.[51]

وبعد هذه الآيات يأتي التصريح بالعبادة متجلّياً فيمن تحقّقوا بوصف **"عباد الرحمان"** مؤكّداً لما تقدّم في سياق آيات الخلق من التذكّر والشكران أعني بذلك قوله تعالى :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ ﴾[52].

- قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ ﴾[53]

المتأمّل في سورة "ق" يجد أن الخلق حاضر فيها بقوّة، من ذلك هاتان الآيتان، وفيهما تنبيه للعقول كي تنظر إلى خلق السماء وما فيها من نجوم وكواكب .... ولا شكّ أن علم الفلك المعاصر وما أحرزه من كشوفات في طبقات السماء الدنيا وأفلاكها ، يزيد المتدبّر انبهاراً بهذا القرآن المجيد من جهة، وما فيه من إشارات دقيقة إلى كثير من الحقائق العلميّة المكتشفة أخيراً، ويفتح الفكر والبصر – من جهة ثانية– على مشاهدة دقة صنع الله وعظمته، بما يجعل العقل المتواضع لله يسجد لخالقه ويخضع لله الواحد القهّار!ويلفت التنبيه القرآنيّ النظر البشريّ بعد ذلك إلى جمال خلق الله للأرض ممدودة منبسطة ، تمتدّ سهولها ، وجبالها، وأنهارها، وبحارها، كلّها بين يديه ليّنة متذلّلة! فيزرع سهولها وجبالها ويسخر أنهارها وبحارها فيما ينفعه وينفع عمرانه! [54]

ثم يأتي بعد ذلك قوله تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾[55] دالّاً على اقتران الخلق بحصول التبصرة والذكرى، والتحقّق بمقام العبديّة لله جلّ وعلا دون سواه.

يقول الشيخ رحمه الله تعالى موضّحاً هذه العلاقة : "والمعنى أن ما ورد من آيات كونيّة في خلق السماء والأرض ، تبصير وتذكير للإنسان، وتنبيه قويّ له، وبيان لتجلّيات الرحمة الإلهيّة على العالمين،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بما يجعله يدرك أن الربّ الذي خلق هذا العالم لم يهمله، ولم يغب عنه سبحانه... بل هو إله حيّ قيّوم يدبّر أمر مملكته، ويرعى شؤونها.... وعسى ذلك أن يجعله ينيب إلى خالقه ويدخل تحت ربق عبوديّته طوعاً كما هو داخل تحته كرهاً! فإنما العبد المنيب: هو المؤمن الرجّاع إلى الله، المسارع إلى طاعته، والتحقّقِ من مقام عبوديّته، كلّما تبصّر أو تذكّر".[56]

- قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾[57] يقول الشيخ رحمه الله تعالى: " تلك ثلاث آيات ، كلّ واحدة منهنّ تفتح كتاباً من كتب الكون، لكنّها لا تفتحها على الصفحات التي فتح عليها من قبلُ، في المجلس الأوّل من هذه السورة، من جمال الحُبُك، وبيان دقّة الصنع والتقدير والتدبير، بل تفتحه الآن على مشاهدة صفحات أخرى من عظمة الله عزّ وجلّ، وقدرته، ومشيئته، وتصرّف إرادته سبحانه، وهو يبني السماء، ويفرش الأرض ، ويخلق الأزواج من كلّ شيء. إنها تبصّرنا أساساً بصفة الخالقيّة في ذات الله عزّ وجلّ، وتفتح أعيننا على شعاع جديد من نور اسمه "الخالق"، ذلك الاسم العظيم الذي به استحقّ ربوبيّة العالم، وبه استحقّ عبادة المخلوقين له جلّ جلاله. فإذا شاهدنا في صدر السورة جمال الصنع، فإننا نشاهد هنا جلال الصانع، ولا شكّ هو مقام أعظم وأرقى". [58]

والتعبير في الآيات بخطاب المتكلّم الفاعل مع نون العظمة لفتح البصيرة على مشاهدة يد الصانع وهو يبني ويفرش ويمهّد ويخلق ما يشاء ، ويبدع ما يريد كما يريد، فلا ينشغل الذهن بالمخلوق عن الخالق ، ولا يذهل الفكر بالمصنوع عن الصانع".[59]

وهكذا يمتلئ القلب علماً بالله جلّ وعلا ، فلا يليق بمن كان هذا حاله إلا الفرار إلى الله وحده دون سواه، وهذا هو وجه الاقتران.

لذا قال جلّ وعلا بعدُ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١﴾[60] ، بل إن وجه الاقتران بادٍ من قوله تعالى قبلُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، باعتبار ما يفضي إليه التذكّر من العبادة، فكلّ ما تقدّم من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه... فَفِرُّواْ إِلَى اللَّهِ أي: إلى طاعته وثوابه من معصيته وعقابه ، ووحدوه ولا تشركوا به شيئاً.[61]

وإذا كانت الإشارة إلى العبادة مقترنة بالخلق ضمناً في ما تقدّم من سياق فقد جاء التصريح بها في ختام السورة الكريمة تأكيداً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾[62].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يقول الشيخ رحمه الله تعالى: "وهذه آية جامعة مانعة، والاقتصار على ذكر الجنّ والإنس من دون سائر المخلوقات، مع أنه ما من شيء في الوجود إلا وهو مخلوق للعبادة، كما هو معروف،من الملائكة إلى ما دونها من الكائنات، كالنجوم والشجر والدوابّ...فلأن هذين الجنسين وحدهما ينقضان عهد الله بالكفر والمعصية، أما غيرهما فهو عابد لله أبداً، وتقديم ذكر الجنّ على الإنس، فيه إشارة إلى سبق خلق الجنّ على خلق الإنس في الزمان، كما أن فيه إشارة إلى شناعة اتخاذ الجنّ أرباباً من دون الله، كما هو واقع كثير من الكفار والأديان الشيطانيّة، فالجنّ أنفسهم إنما خلقوا لعبادة الله الواحد الأحد، فدلّ ذلك على أن المقصود بهذا الخطاب أصالةً هو الإنسان، وأنه هو محور التوجيه والمحاسبة، وهو المخاطب الأوّل بهذا القرآن، والجنّ في ذلك له تبع. فالعبادة إذن هي الوظيفة الأولى والأخيرة للإنسان."[63]

هذه بعض البصائر القرآنيّة، والإشارات التدبّريّة،تُجلّي لنا جمال اقتران الخلق بالعبادة في القرآن، ممّا وقفت عليه عند الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى في "مجالسه"،عسى أن تكون بداية لتتبّع مواطن الاقتران في كلّ القرآن.

وحسبي في ختام هذا العرض أن أتمثل بقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى:

وَظُنَّ بِهِ[64]خَيْراً وَسَامِحْ نَسِيجَهُ
بالاغْضاءِ وَالْحُسْنَى وإِنْ كانَ هَلْهَلاَ
وَسَلِّمْ لإِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ إِصَابَةٌ
وَالأُخْرَى اجْتِهادٌ رَامَ صَوْبًا فَأَمْحَلاَ
وَإِنْ كَانَ خَرْقٌ فَادرِكْهُ بِفَضْلَةٍ
مِنَ الْحِلْمِ ولْيُصْلِحْهُ مَنْ جَادَ مِقْوَلاَ[65]

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الهوامش:

1- هو الوليد بن المغيرة وقصته أخرجها الحاكم في المستدرك ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي 2 \ 507

2- سورة "ص" الآية 29

3- سورة الحشر: الآية 21

4- سورة الحشر :الآية 22-23-24.

5- الفوائد 20/1

6- سورة العلق: الآية 1-2

7- سورة الأنعام: من الآية 74 إلى 79

8- الفتاوى الحديثيّة لابن حجر 180/1

9- بلاغ الرسالة القرآنيّة لفريد الأنصاري ص 63

10- سورة الغاشية: من الآية 17إلى 20

11- سورة الذاريات: الآية 21

12- مدارج السالكين لابن القيّم 141/1

13- سورة "الجاثية: الآية 13

14- الإسراء: 70

15- مقومات التكليف لراتب النابلسي بتصرف ص 44

16- تفسير الشعراوي 1053/1 بتصرّف

17- سورة آل عمران: الآية 190-191. (صحيح ابن حبان 386/2)

18- مجالس القرآن 160/1

19- بلاغ الرسالة القرآنية ص64

20- مجالس القرآن 136/2

21- سورة نوح:الآية 13-14

22- سورة يس :من الآية 78 إلى81

23- سورة طه: 49-50

24- سورة عبس: من الآية17إلى 23

25- سورة المؤمنون:من الآية 12إلى 16

www.alukah.net
شبكة الألوكة

26- سورة القيامة:من الآية36 إلى 40

27- سورة الإنسان:من الآية 1 إلى 5

28- بلاغ الرسالة القرآنيّة ص69

29- سورة البقرة: الآية21

30- في ظلال القرآن لسيد قطب بتصرف يسير 18/1

31- عَجَّ يَعِجُّ ويَعَجُّ عَجّاً وعجيجاً وضجَّ يَضِجُّ رفع صوته وصاحَ . لسان العرب، مادة : "عجج" 318/2

32- مجالس القرآن ص 78

33- سورة البقرة الآية 23

34- مجالس القرآن ص 80

35- سورة البقرة الآية**29**

36- سورة البقرة الآية 30

37- سورة لقمان الآية 20

38- بلاغ الرسالة القرآنيّة ص 70

39- بلاغ الرسالة القرآنيّة ص71

40- سورة الفرقان:من الآية 45إلى 49

41- مجالس القرآن 227/1

42- المرجع نفسه 227/1

43- سورة الفرقان :الآية 53-54

44- سورة الفرقان :الآية 55

45- سورة الفرقان من الآية 46 إلى 56

46- سنن الترمذي 211/5، رقم الحديث: 2969

47- سورة الفرقان من الآية63 إلى 74

48- سورة الفرقان: الآية61-62

49- مجالس القرآن 240/1 بتصرّف يسير.

50- مجالس القرآن 240/1 بتصرّف يسير.

51- رواه البخاري50/2 رقم الحديث:1130

52- الفرقان من الآية 63 إلى آخر السورة

53- سورة ق: الآية 6-7

www.alukah.net

54- مجالس القرآن 2/34-35-36

55- سورة ق: الآية 8

56- مجالس القرآن2/36

57- سورة الذاريات: الآيات47-48-49

58- مجالس القرآن 2/128

59- المرجع نفسه2/131

60- سورة الذاريات الآية 50-51

61- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري بتصرف يسير 4/407

62- سورة الذاريات: الآية 56

63- مجالس القرآن 2/135

64- الضمير يعود على النظم.

65- ينظر شرح البيتين في العقد النضيد في شرح القصيد للسمين الحلبي1/274 وما بعدها، فقد أجاد رحمه الله تعالى في ذلك وأفاد.

هذا الكتاب منشور في